

مقاومة؟

يعملون لصالحها رفضوا الإجابة وأنهوا الحديث معها على الفور. «ترامب لم يخطئ عندما تناول حزب الله» بحسب الصحافي بول شنكمان (يو اس نيوز) و«لم يتفاجأ الحريري بالخطاب لأن ترامب كان قد صارحه بشأن موقفه من حزب الله خلال اجتماعهما».

على أي حال لم يكن ذلك مفاجئاً لأحد في لبنان. فرئيس مجلس الوزراء ذهب الى واشنطن وهو يعلم جيداً أن حزب الله بات اليوم قوة إقليمية لا مكان للدول الصغيرة في مواجهتها، كما لا مكان له لمنع أحد من محاولة النيل منها، حتى ولو أنت المحاولة عن طريق الايقاع بين الجيش والمقاومة. هذه المقاومة تعلمت من خلال سنين من التجربة ان عليها ان تعتمد على نفسها.

تقرير

المعلومات يضبط صواريخ «داعشية»!

أوقف فرع المعلومات قبل أيام، شبكة إرهابية تابعة لتنظيم «داعش» مؤلفة من أربعة لبنانيين، يحمل أحدهم الجنسية الفرنسية، تعمل بين طرابلس والصّنية. وبحسب البيان، ضبط الفرع كمّية كبيرة من الأسلحة في أحد المستودعات في أبي سمرا في طرابلس، وعُثر على 13 صاروخاً مذبذباً عيار 60 ملم وعدد من البنادق والمسدسات والذخائر، وعدد كبير من أجهزة التواصل اللاسلكية وحافظات معلومات تتضمن خرائط مفصلة لمنطقتي الشمال والبقاع وغيرها.

وبالتحقيق مع الموقوفين وهم: م. ب. (1977)، يحمل الجنسيّتين اللبنانية والفرنسية، ف. د. (1965)، لبناني، ج. ج. (1971)، لبناني، أ. ح. (1986)، لبناني، اعترفوا بالتواصل مع كوادر من «داعش» في سوريا والعراق بهدف تنسيق عمل التنظيم في لبنان والخارج وتحويل أموال لإرهابيين. واعترف (م. ب.) وهو المشغل الرئيسي بأنه تعرف في عام 2013 إلى (ع. ف.)، الذي حثّه وآخرين على «مشروع جهادي» تمهيداً لإقامة فرع للتنظيم في طرابلس، ثمّ تعرف إلى أحد أبرز أمنيين «داعش» وهو يحمل الجنسيّتين اللبنانية والدنماركية، حيث ساعد الأخير في تجربة عدد من الطائرات من دون طيار في شمال لبنان، الذي أصبح لاحقاً مسؤول وحدة الهندسة في التنظيم في الرقة.

(الأخبار)

(هيثم الموسوي)



عامر محسن

«... فإن أشرنا امرنا ان يتوجه من عساكرنا شذمة قليلون، نحو ماية الف او يزيدون، بكمال الاستعداد من الالة والزاد، وتبعم العساكر بالعساكر، والجيوش بالجيوش الكواسر، يكون اولهم بالبلاد اليمنية، واخرهم بمملكنا الحمية الشنية، ولا نحتاج ان نعرفكم قوة سلطاننا وسديد عزمنا وشديد اركاننا، فإن اكابر الملوك ذوي النيجان، واهل القوة والامكان، خاضعون لدولتنا الشريفة فهرا، مطاطون بروؤسهم في اعتابنا جبرا وقسرا»

(من رسالة السلطان العثماني الى الثائر اليمني المطهر بن شرف الدين، يدعوه فيها الى الخضوع للدولة وإنهاء تمرده على السلطة العثمانية)

■ ■ ■

«ولقد سمعت المرجوم احمد جليبي المقتول (دفتردار مصر) يفاوض المرجوم داود باشا في حدود سنة 953 فقال: ما راينا مسبكا ملك اليمن لعسكرنا، كلما جهزنا اليه عسكرا ذاب ذوبان الملح، ولا يعود منه الا الفرد النادر، ولقد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر من زمان ابراهيم باشا الى الان، فراينا قد جهز من مصر الى اليمن في هذه المدة ثمانون الفا من العسكر، لم يبق منهم في اليمن سبعة الاف نفر»

(قطب الدين النهروالي: «البرق اليمني في الفتح العثماني»، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، 1967)

■ ■ ■

جبال اليمن حصونه. يقول الباحث الأميركي كلايف سميث إن السلاسل الجبلية الشاهقة التي تخترق اليمن تتلقى، في الجنوب، كميات كبيرة من الأمطار الموسمية فتستحيل مناطق خصب وزراعة (يزعم الأكاديمي مايكل هدسون، الذي زار كل البلاد العربية بلا استثناء، أن جنوب اليمن هو أجملها على الإطلاق)، فيما تنحسب الأمطار عن الجبال في الداخل والشمال، فأصبح سكان الاقليم خبراء في تخزين المياه الشحيحة وبناء السدود وأنظمة الري. على هذه القمم تتوزع القلاع والحصون ويقبّس سميث مؤرخاً يمينياً من القرن العاشر، هو ابو محمد الحسن الهمداني، كتب توصيفاً شاملاً لقلع اليمن وأبراجها وأطلالها، وهي بالمئات، والكثير منها يعود الى عهود سحيقة. يجب أن تفهم هذه الصورة حتى تعرف لماذا لم يتمكن احتلال أجنبي من الاستدامة في اليمن، ولماذا كانت جبال اليمن دوماً «مقبرة للغزاة».

كان في وسع جيش جرّار أن يجتاح الساحل اليمني السهلي، كما فعل العثمانيون في القرنين السادس عشر والتاسع عشر، وأن ينزل من جيزان ويحتل مدينة زيد الاستراتيجية في التهامة، وبعدها مرفا المخا، ثم يلتف الى تعز ويصعد شمالاً الى صنعاء. ولكن حتى تسيطر على البلد بشكل حقيقي، فأنت تحتاج الى تطويع كل هذه الحصون والقلاع المنتشرة في آن واحد، والتحكّم بالآلاف الكيلومترات من الطرق التي تصل بينها. كان يكفي أن يطلق الإمام نداء الخروج حتى تنتفض القبائل في أنحاء البلد، وتجعل الجيش الغريب ملاحقاً معزولاً، تسدّ الطرق في وجهه وتعرضه الغارات من كل جانب. في تاريخ قطب الدين النهروالي المكّي للحملات العثمانية في اليمن في القرن السادس عشر، مثلاً، نجد مراد باشا، أحد أوائل الحكّام العثمانيين الذين حاولوا السيطرة على الداخل الجبلي، وقد ذاب جيشه بعد أن وصل الى صنعاء، والقبائل تغير على وحداته حتى تفتّت وأصبح «العربان» (كما يسمي النهروالي قبائل اليمن) ينهبون الجنود ويسلبونهم أسلحتهم وثيابهم. وجد مراد باشا نفسه، في نهاية الأمر، محاصراً في خيمة مع العشرات من أمرائه، وحوله مقاتلون قبليون، سرقوا ما معهم وجردّوهم من ثيابهم وتركوهم عرايا يبحثون عن الطريق الى تعز. ثمّ تلقّف مراد باشا شيخ عربي، أعدمه فوراً ثاراً لآخر أبناء سلالة بني طاهر، صاحب عدن الذي قتله حاكمٌ عثماني آخر - اسمه سليمان باشا - غيلة قبل عقود؛ واعتبر الشيخ أن رأس الباشا المقطوع هو ثارٌ مستحقّ لجده.

ثورة المطهر بن شرف الدين، التي قتلت مراد باشا وطردت العثمانيين حتى من المدن الساحلية، استدعت حملة سنان باشا ضدّ اليمن عام 1569. قابل سنان الفقيه والمؤرّخ النهروالي في مكة وهو في طريقه الى اليمن، وطلب منه تدوين أحداث حملته وانتصاراته، وهذا سبب كتابة «البرق اليمني» (من السهل الحصول على الكتاب مجاناً على الانترنت). يبدأ النهروالي تاريخه من الغزو المملوكي للبلد ونهاية حكم عامر بن عبد الوهاب، آخر ملوك بني طاهر الذين حكموا اليمن موحّداً، ثمّ وقوع البلد تحت السلطة العثمانية الاسميّة بعد أن سيطرت اسطنبول على القاهرة والمشرق وجدة. الطريف هو أنّ الباحث السعودي الذي حقّق المخطوط - وهو يكتب عام 1967، حين كان النظام في الرياض يخوض حرباً في اليمن نصرّة للملكيين - يتعاطف بوضوح في مقدمته مع الثوار اليمنيين، ويعتبرهم مناضلين يدفعون غزواً أجنبياً. بل يحتجّ على وصف النهروالي للمقاتلين الزيديّين بتعابير تحقيرية مثل «حزب الشيطان» و«الضالين»، وينبّه الى أنّه «مؤرّخ سلطة» يعمل لدى الباشا، ويحكم بأن هذه الأوصاف تليق بالسلطة العثمانية أكثر من خصومها.

الظروف الدوليّة، كما اليوم، كانت في أساس الحرب، والنهروالي واع لهذا الواقع بالكامل، فهو يبدأ تاريخه مع دوران البرتغاليين حول رأس الرّجاء الصالح، وافتتاحهم طريقاً الى الهند، وضربهم للسلاطين المسلمين الهنود وسيطرتهم على هرمز (يقول المؤرّخ والفقيه إنّ سرّ الإبحار الى الهند قد سرّبه البحار العربي الشهير أحمد بن ماجد الى البرتغاليين عن غير قصد، حين أسكره الخمر وهو مع أحد قادتهم، وشرح له المواقع التي يجب

البرق اليمني

أن تبتعد فيها السفن عن الساحل في جنوب أفريقيا حتى لا تضربها الأنواء وتعتبر بسلام). بل إنّ حملة سنان باشا، وإصرار اسطنبول على إرسال قوة ضخمة لإخضاع اليمن، كان مرده الأساسي استيلاء قوات المطهر على عدن، وتخوف السلطنة من أن يدخلها البرتغاليون («الفرقتال»، كما يسميهم النهروالي، وغالباً «الفرقتال اللعين»)، وأن يتمكنوا من قطع طريق الحج والتجارة بين الهند ومصر. حملات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان لها حوافز مشابهة، مع دخول البريطانيين الى عدن - عام 1839 - وتهديدهم لبندر المخا وسواحل البحر الأحمر. لهذا السبب، ترافقت حملة سنان باشا البريّة مع غزوة بحرية للقطبان خير الدّين استولت على عدن، وقد اضطرّ سنان - وهو يجهز الحملة في مصر - الى إعدام اثنين من أمراء الترك بشكل علنيّ ووحشي حتى يحث باقي الأمراء على التطوّع للقتال في اليمن، بعد أن استنكف أكثرهم في البداية خوفاً من صعوبة الحرب فيه ونظراً لعدد الباشوات والأمراء الذين قضوا في جباله. بعد الإعدامات، يكتب قطب الدّين، بدأ قادة العسكر بالتسابق على السفر في الحملة.

نكبة الحملات

ألا أن قراراً من اسطنبول، يتّخذة القيادة وهم متخلّعون حول خارطة، ينظرون الى الظروف الدولية والاستراتيجية ثم يقرّون أنّ من الضروري احتلال هذه البقعة وغزوها، لا يعني أنّ مناهم سينتحق على أرض الواقع - وهو خطأ في التقدير ستكرره أكثر من قوّة في المستقبل. المشترك بين الحملات العثمانية في اليمن، وبينها أكثر من ثلاثة قرون، أنّها تحوّلت جميعها الى وربات كارثيّة. وحتى حين كان سنان باشا وغيره يتمكن من فرض هيبة مؤقتة على عمق البلاد، كانت السلطة سرعان ما تتفكك تحت ضغط تمرّدات عاتية. نصّ قطب الدّين النهروالي هو تعدادٌ تفصيليّ للأهوال التي تواجه أيّ غاز لليمن، من الطبيعة الى الاستحكامات الى القبائل المحاربة. تمحور جزءٌ أساسي من حملة سنان باشا، مثلاً، حول اخضاع قلاع اسطوريّة مثل بلدة كوكبان المنيعه، التي تقع على شاهق ارتفاعه أكثر من ثلاثة آلاف متر يستحيل تسلّقه، وبوابتها الرئيسية يوصل اليها جسراً ضيق مرتفع، ما يجعل اقتحامها مستحيلاً. وكوكبان تقع على مطل يحمي مدينة شبام (شبام غرب صنعاء، وهي غير شبام حضرموت الشهيرة)، يقول قطب الدين، تماماً كما تحمي قلعة القاهرة مدينة تعز (السعوديون قصفوا القلعة القاهرية، مثلما دمّروا الكثير من الآثار المذكورة في أحداث «البرق اليمني»)، ولا يمكنك أن تتوقّع ممن لا يحترم آثار أجداده، ويشوّه أهمّ معالم حضارتنا في مكة والمدينة، أن يحرص على تراث غيره). لم يتمّ اقتحام كوكبان، في كلّ حملات العثمانيين، إلا عبر التسليم والصّلح، وبعد حصارات تدوم أشهراً وتكفّ الغازي غالباً، ومثلها قلعة ثلا التي تقع على مدى النّظر منها - وكنت تجد سلسلة من هذه القلاع مشرفة على بعضها البعض، كما في جبل الطويلة، حيث كان المتمرّدون يتحصّنون في ثلاثة حصون متجاورة تحتلّ كل القمم الحاكمة.

كان رجال سنان باشا انكشاريين «أصليين»، رجالاً أجلاًف وشجعان ودمويّون شاركوا في أهمّ الفتوحات العثمانية، ولكنّ طبيعة اليمن هزمتهم. يروي قطب الدين حيرة سنان باشا وهو يحاول الاختيار بين ثلاثة طرق يمكن لجيشه سلوكها: طريق مختصر ولكنّه في باطن الجبال، «تخاف سلوكه الوحوش»، ولا يمكن للمدافع عبوره. الطريق الثاني متلّو وخطير، ومعرّض للهجمات في كلّ موقع. والثالث قابل لعبور قوافل الجيش ولكنّه التفافيّ وطويل جداً. كان اليمينيون يسدّون الطرق بالأشجار ويحوّلون الأنهار اليها لتصير مستنقعاً موحلاً، تنغرس فيه المدافع وسنابك الجياد، وتصبح طوابير الجيش أهدافاً سهلة للغارات والقناصين. إن كانت حملة 1569 «مكبساً للعسكر» على حدّ قول قطب الدّين، فإنّ الحملات الحديثة لم تكن أقلّ كارثيّة. في عام 1905 وحده - يكتب بول دريش في عمله عن تاريخ اليمن - خسر العثمانيون أكثر من 30,000 جندي في اليمن الشمالي؛ وحين حاولوا اخضاع ابن ادريس في عسير وتهامة المجاورة، فقدوا عدداً من الجنود يفوق حجم القوات الادرسية بأكملها.

الغزاة، تاريخياً، لا ينظرون الى اليمن إلا من الزاوية العسكرية: كان مكسباً استراتيجياً بالنسبة الى العثمانيين، وهو مجردّ ساحة لـ«الحرب على الارهاب» بالنسبة الى اميركا اليوم، وتراه الرياض مجالاً للهيمنة والتوسّع، ويعتقد حكّامها أنّ في وسعهم فعل ما عجزت الاستانة وبريطانيا ومصر عن تحقيقه، أو أنّهم سيخرجون من هذا العدوان سالمين. الغزاة لا يهتمهم تاريخ البلد ومستقبله، ولكن ماضي اليمن يكشف أنماطاً تتكرّر: هذه الجبال لا يحكمها وكلاء الأجانب والسلالات التابعة - وهي كانت كثيرة ولم يثبت منها أحد - فسادة اليمن الحقيقيّون، على مرّ التاريخ، هم أمّا ملوك أو ثوار. ثانياً، دورات الهبوط والصّعود ليست جديدة على هذا الاقليم. حصل انحدادٌ طويل في اليمن خلال القرن التاسع عشر مثلاً، بعد قرون من الاستقرار والرخاء النسبي، بعد أن انخفضت أسعار القهوة على مستوى العالم وانتشرت زراعتها في المستعمرات الأوروبية؛ مثلما شهد القرن العشرين فشل تجربة الدولة الوطنية وتفكك مشروعها في جنوب اليمن وشماله، موصلاً الى الواقع الحالي. ولكن بعد كلّ مرحلة هبوط، كانت تخرج دعوة أو ثورة أو إمام، تعيد تنظيم المجتمع «من تحت» وتطلق مرحلة تاريخية جديدة. أخيراً، فإنّ هذا البلد، الذي يجمع بين أهمية سنغافورة ومنعة أفغانستان، لن يصيب «هامشاً محتلاً» بسهولة، بل إن اختصاص أهله على مدى الزمن كان في احتمال العوادي والصّبرعليها، وإسقاء الموت لكلّ غازٍ طمّاع.